الزاوية الرحمانية وأثرها في الوحدة المغاربية
(القسم الثاني)

أ/عبد المنعم القاسمي الحسني*

ثالثا: الطريقة الرحمانية

الطريقة الرحمانية هي طريقة دينية صوفية، نشأت في الجزائر في أواخر القرن الثاني عشر الهجري/الثامن عشر الميلادي، على يد مؤسّسها الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري (ومنه أخذت اسمها)، ففي سنة1183هـ أسّس الشيخ زاويته بقرية آيت إسماعيل ومنها انطلقت الطريقة الرحمانية التي كانت تسمّى في البداية الطريقة الخلوتية.

وهذه الطريقة التي كما صرّح الشيخ مصطفى القاسمي شيخ زاوية الهامل: "تدعو إلى احترام مبادئ الدِّين الإسلامي الحنيف وتدعو مريديها إلى العمل على نشر الخير والفضيلة وتدريس العلوم الشرعية وتربية الأبناء على الأخلاق الحميدة وتقاليد الآباء والأجداد وغرس الإيمان في قلوب الناس وتعليم الناس أمور دينهم وواجباتهم تجاه الله والرّسول والناس أجمعين".

وهي طريقة تدعو إلى الصفاء والعودة إلى المنابع الأولى للإسلام كما نجد ذلك في مصادرها ومراجعها الأساسية وهذا لا يمكن الوصول إليه إلاّ عن طريق تطهير النّفس وتخليصها من الشوائب والرعونات التي تمنعها من

* أستاذ بجامعة قاصدي مرباح- ورقلة.

الوصول إلى جناب الحق ويجب عليها قطع سبع مراحل أوأنفس بواسطة سبعة أسماء، شرح هذه الطريقة وفصّلها في رسائله الكثيرة والمتعددة التي كان يرسلها إلى أتباعه ومريديه والذي كان يطلب منهم ألاّ يبقوها بأيديهم بل يبعثوا بها إلى غيرهم لكي يستفيدوا منها، ثم تعود إليه في آخر المطاف وهي طريقة عرفت نجاحًا كبيرًا، وطبّقها أتباعه بالحرف، ممّا أدّى إلى سرعة انتشار الطريقة الرحمانية في القطر الجزائري وقد عرفت هذا الانتشار الواسع في حياة مؤسّسها نفسه.

والشكل العام في التنظيم في الطريقة الرحمانية متشابه مع بقية الطرق الأخرى، فهناك الشيخ أو المعلم الذي مكّن له المريدون كل الطاعة وهناك المقدم وهو الذي ينوب عن الشيخ في بعض المهام والوظائف وهناك المريد وهو محور العملية التربوية في الطريقة.

وتهدف الطريقة الرحمانية - على ما يذكره أتباعها - إلى الجمع بين المنهجين المعروفين في الفكر الإسلامي:

1. منهج العلماء الذين يرون ضرورة التمسك بأحكام الشريعة الإسلامية.
2. منهج الصوفية الذين يرون ضرورة التمسك بالتجربة الدينية.

أما مؤسّس الطريقة الرحمانية، فهو الشيخ سيدي محمد بن عبد الرحمن الأزهري[1] بن الحسن بن فاطمة بنت الرّسول صلّى الله عليه وسلّم[2] ولد

---

1. عن ترجمة الشيخ محمد بن عبد الرحمن، انظر: مناقب الشيخ الأزهري: علي بن عيسى العصنوبي، مخطوط بالمكتبة الوطنية بالحامة، تحت رقم 945، أعلام الفكر والثقافة في الجزائر المحروسة، د.يحي بوعزيز، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1995، تاريخ الجزائر العام، عبد الرحمن الجيلالي، 47/4، تعريف الخلف، أبو القاسم الحفناوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ج/407، دائرة المعارف الإسلامية، مادة رحمانية، 533/10، معجم مشاهير المغاربة، إعداد جماعة من الأساتذة، بإشراف الدكتور الشيخ بوعمران، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1995، ص 37.
2. الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، 457/2.

حوالي سنة 1133هـ، بقرية بوعلاوة، التي تقع ببلاد جرجرة[1] وإلى هذه الأرض ينسب، كما لقب بالأزهر الشريف الذي جاوره مدة طويلة.

نشأ ببلاد زواوة، تتلمذ في بداية أمره على يد الشيخ الصديق بن أعراب، ثم ذهب إلى الحج في حوالي التاسعة عشر من عمره أي حوالي سنة 1152هـ/1734م[2]، وفي طريق عودته أعجب بالأوضاع العلمية بمصر فاستقر هناك مجاورًا للأزهر الشريف، وتلقى العلوم على أيدي علماء أجلاء منهم: أحمد بن محمد بن أبي حامد العدوي المعروف بـ"الدردير" (ت:1201هـ)، علي بن أحمد الصعيدي (ت:1189هـ)، الشيخ علي العمروسي (ت:1173هـ)، وعلى يد "المنور التلمساني" (ت:1173هـ).

وبعد تحصيل العلوم الفقهية من هؤلاء الأعلام، اتّجه إلى الشيخ محمد بن سالم الحفناوي الخلوتي وسلك على يديه[3]، الذي كلّفه بنشر الطريقة والدعوة في بلاد السودان والهند، فأقام ست سنوات في دارفور يقرئ السلطان ويدعو إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتّى صار له أتباع كثيرون، وحصل له الاقتداء في هذه المنطقة، ثم أمره شيخه بالعودة إلى القاهرة وألبسه الخرقة وكلّفه بالتوجه إلى الجزائر لنشر الطريقة هناك وكان ذلك سنة 1177هـ/1758م.

بعد عودته من المشرق استقر الشيخ بن عبد الرحمن بمسقط رأسه، وأسّس زاويته هناك وتصدى للتعليم ولنشر الطريقة الخلوتية والتف حوله عدد كبير من الطلاب، فعلا صيته وذاعت شهرته وأصبحت زاويته مركزًا لنشر الطريقة وملتقى للإخوان والمريدين.

---

1. جرجرة: قسم من جبال الأطلس بإفريقيا، يمتد من شمال الجزائر إلى جنوب شرقي بجاية، أهله من قبائل البربر، دائرة المعارف، بطرس البستاني،426/6.
2. انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مقال "رحمانية"، 533/10.
3. أدخله الشيخ الحفناوي في الطريقة الخلوتية سنة 1171هـ، انظر: دائرة المعارف الإسلامية، 533/10.

انتقل بعد ذلك إلى قرية "الحامة" قرب مدينة الجزائر واستقر هناك ولم تمض فترة طويلة على استقراره بـ"الحامة" حتّى بدأت المشاكل والمتاعب تترى من طرف علماء الظاهر، فبدأوا بشن الحملات عليه وإثارة الداي محمد عثمان عليه، ممّا جعله ينصب له مجلسًا للحكم في أمره وللنظر في الاتهامات الموجهة إليه، وظهرت حججه على آرائهم الباطلة وبرئ من تهمة الزندقة التي وجّهت إليه. وبالرغم من موقف الداي إلى أن الشيخ رأى وجوب مغادرة الجزائر والعودة إلى مسقط رأسه آيت إسماعيل بجرجرة وأسّس هناك زاوية جديدة وتفرّغ للتعليم والطريقة. توفي سنة 1208 هـ/1793 م. ودفن بزاويته.

ترك الشيخ بن عبد الرحمن الأزهري مجموعة كبيرة من التلامذة كانوا بدورهم من شيوخ الطريقة ونشروها في مختلف البقاع، ومن أشهر تلامذته: علي بن عيسى المغربي، عبد الرحمن باش تارزي، محمد بن عزوز البرجي، محمد العمَّالي ولد حميدة العمالي...

أما عن مؤلفاته، فيذكر الشيخ الحفناوي في ((تعريف الخلف برجال السلف)): "أن للأزهري رسائل كثيرة في تعليم الخلق وإرشادهم إلى طريق الخير، اعتنى بجمعها أكابر رجال طريقته ولو طبعت لكانت مجلدًا كبير الحجم كثير العلم"[1].

ومن أشهر مؤلفاته: رسالة فتح الباب[2]، رسالة طي الأنفاس[3]، دفتر الدفاتر[4]، شرح على الريفاوي[5] وهو شرح لقصيدة (قوته قولي) لصاحبها

---

1. الحفناوي: تعريف الخلف برجال السلف، 460/2.
2. رسالة فتح الباب: مخطوطة موجودة بمكتبة الأسرة العثمانية بزاوية طولقة بالجنوب الجزائري.
3. رسالة طي الأنفاس: وتسمى أيضا "رسالة طي النفوس من تكلم بها حال في بحر ملكوت القدوس"، مخطوطة موجودة بمكتبة زاوية الهامل ومكتبة الشيخ بن عزوز القاسمي رحمه الله، بعين وسارة.
4. دفتر الدفاتر: موجود بمكتبة أسرة العثماني بطولقة، ومكتبة الشيخ بن عزوز القاسمي.
5. شرح علي الريفاوي: موجود بمكتبة بن عزوز القاسمي.

عبد الله الريفاوي، شرح لامية الزقاق[1] وهي في الأقضية، قال عنه إنه ألّفه بإذن شيخه الحفناوي، زلزلة النفوس[2] وكان لا يفارقه لعزته عليه، وغيرها من المؤلفات والرسائل.

توفي الشيخ بن عبد الرحمن وكان قد أوصى بالخلافة بعده إلى تلميذه الشيخ علي بن عيسى المغربي، وترك له جميع كتبه وأوقافه وأشهد على ذلك أهل آيت إسماعيل، وظلّ الشيخ علي بن عيسى يدير شؤون الزاوية إلى وفاته 1251هـ/1836م. تولّى بعده سي بلقاسم بن محمد الحفيد من المعاتقة ولم يدم عهده إلاّ سنة. تولّى بعده سي الحاج البشير وهو أيضًا من المغرب (1836-1841). تولّى بعده محمد بن بلقاسم نايت عنان لمدة سنة واحدة أيضًا (43-1844). تولّى بعده الحاج عمار سنة1844م، وأدّى دورًا هامًا في مقاومة زواوة 1857م وقد هدّمت الزاوية في عهده على يد الجنرال "ديفو" واضطر الحاج عمار إلى الهجرة إلى الحجاز. وكانت الرحمانية في هذه الفترة هي زعيمة الطرق في زواوة. وهذا التضييق والهدم أدّى إلى انتشار سريع للطريقة، عكس ما كانت تتوقّعه السلطات الاستعمارية، وافتتحت زوايا أخرى كزاوية الكاف مثلاً وزاوية نفطة.

وبعد الحاج عمار تولّى الشيخ محمد الجعدي والذي لم تطل مدة ولايته، إذ انتخب الأعيان والسادة والشيوخ الشيخ محمد أمزيان الحداد شيخًا للطريقة مع الاستقرار بصدوق وفي عهده اشتهرت زاوية صدوق بالعلم، وعادت للطريقة حركيتها ومكانتها السابقة، وفي عهده قامت ثورة (1871م) التي كان من نتائجها سجن الشيخ الحداد وإغلاق الزاوية وتهديمها. وأوصى الشيخ الحداد قبل وفاته بالخلافة للشيخ الحاج الحملاوي شيخ الزاوية الحملاوية بتلاغمة بنواحي قسنطينة.

---

1. شرح لامية الزقاق: توجد نسخة منه بمكتبة بن عزوز القاسمي، 40 ورقة، نسخ 1305هـ.
2. زلزلة النفوس: ذكره المكي ابن عزوز في الرسالة التي حققها ونشرها علي الرضا التونسي، دمشق 1984، ص131.

وتعتبر الطريقة الرحمانية أوسع الطرق انتشارًا في الجزائر في القرن 19م، فإذا رجعنا إلى الإحصائيات فإننا نجد أن عدد أتباعها قد بلغ سنة 1851 م حوالي 225299 مريدا من بين 718691 إخوانا ينتمون إلى الطريق الصوفي، وهذا في مقاطعة الجزائر فقط، وهو ما يعادل نسبة 32 بالمائة. وفي الإحصاء الّذي قام به كوبولاني وديبون سنة 1897م نجد أن عدد الزوايا بالجزائر بلغ 349 زاوية، منها 177 زاوية خاصة تابعة للطريقة الرحمانية وحدها أي ما يفوق نسبة 50 بالمائة.

من أشهر زواياها: زاوية باش تارزي بقسنطينة، زاوية ابن عزوز البرجي، زاوية علي بن عمر بطولقة، زاوية نفطة بتونس، زاوية ابن الحملاوي، زاوية البوجليلي، زاوية الهامل بالقرب من مدينة بوسعادة.

من أشهر أعلامها: الشيخ عبد الرحمن باش تارزي، الشيخ الصادق بن الحاج المصمودي، الشيخ عبد الحفيظ الخنقي، الشيخ المختار الجلالي، الشيخ محمد أمزيان الحداد، الشيخ محمد بن أبي القاسمي الهاملي.

الوحدة بين أبناء الأمّة الجزائرية

سعَى الصوفية دومًا إلى ربط العباد بربّ العباد وإقامة علاقة دائمة وجدية مع الخالق وهو ما يستدعي ربط العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان ولذا نجدهم في معظم خطاباتهم يدعون إلى الوحدة وعدم التفرقة، بل إن من الباحثين مَن يعد التصوف مذهبًا إنسانيًا وليس حكرًا على ديانة دون ديانة، وقد وجدنا في كتابات أعلام التصوف الإسلامي ما يشير إلى هذه النقطة بالذات، فقد اعتبر ابن عربي رحمه الله أن الديانات كلّها مصدرها واحد فلا فرق بين الإسلام والمسيحية واليهودية.

ومن هنا تتضح لنا مساهمات الطرق الصوفية في الدعوة إلى الوحدة والتوحيد بين الناس، وعدم التفرقة بينهم، عملا بقوله تعالى ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾[1].

والطريقة الرحمانية لم تشذ عن القاعدة، ولم تخرج عن المتوارث في الأدبيات الصوفية، فقد سعت جهدها إلى لمّ الشمل وتوحيد الصف، وقواعد الطريقة الرحمانية في آداب المريد خير دليل على ما نقول: فهناك آداب المريد مع شيخه وهي الطاعة والالتزام بأوامره وعدم الخوض في ما لا يعنيه ويؤدي به إلى التفرقة والعزلة. وهناك آداب المريد مع إخوانه من وجوب الإحسان إليهم ومعاملتهم، وخدمتهم. وهناك آداب المريد مع غير أتباع طريقته. ونصوص الطريقة تحث على وجوب احترام الغير والإحسان إليهم وعدم الإساءة إلى مَن أساء إليك. ونستطيع أن نلمح ثلاثة مستويات عملت عليها الطريقة الرحمانية في الجزائر. والأمثلة من التاريخ كثيرة ومتعددة، فقد شاركت الطريقة الرحمانية بأتباعها وبالرجال والمال في المقاومة تحت لواء الأمير عبد القادر، وانضمت بلاد القبائل إلى الأمير عن طريق الطريقة الرحمانية، ولمّا توقف القتال ونفي الأمير إلى الخارج قامت بنفسها بقيادة ثورات متعددة. وشاركت مع الطريقة الدرقاوية في ثورة 1849. كما شاركت في انتفاضة الطرق الصوفية مشتركة سنة 1849.

أولاً: التوحيد بين العرب و البربر

لعلّ الجمود الذي كان يميز العلاقات بين البربر و العرب والحدود التي كانت موضوعة بينهما نتيجة الخلافات السياسية والظروف التاريخية، من

---

1. سورة الإسراء، الآية 70.

النقاط التي تشغل ذهن مؤسس الطريقة الرحمانية، فسعى جهده إلى التقليل من حدة هذا الخلاف وبناء علاقات وطيدة بني العرب والبربر.

وقد اعتبر باحثون غربيون أن الطريقة الرحمانية هي رمز الوطنية البربرية وأنها انتصار للتصوف القبائلي تجاه الطرق الأخرى وقد رأى فيها البربر رمزًا لوحدتهم واستقلالهم عن بقية الطرق، وحاول الغربيون من خلال هذا التفسير المجانب للصواب -كعادتهم دوما- التسلل لبث بذور الصراع والشقاق بين أفراد الأمة الواحدة.

ولعلّ أبرز دليل عن تهافت هذا الطرح وبطلانه أن الذي نشر الطريقة الرحمانية هم العرب إذا تكلمنا بلغة هؤلاء الكتاب وأن مشيخة الطريقة في بلاد القبائل قد آلت إلى عرب. فقد احتضن الجزائريون بكل مشاربهم ومن كل مناطق الوطن هذه الطريقة وانتشرت في معظم مناطق الوطن، بل كانت تمثّل أكبر طريقة من حيث عدد الأتباع وعدد الزوايا في نهاية القرن التاسع عشر، ولعلّ السّر في نجاحها يعود إلى شخصية المؤسّس نفسه، ببساطته وتواضعه، صدقه وإخلاصه في الدعوة إلى الله، ونحن نعلم أنه قد ظلّ يدعو إلى طريقته مدة تزيد عن 35 سنة، أي منذ عودته من المشرق سنة 1758 م إلى وفاته سنة 1793 م.

والعامل الثاني الذي ساهم في انتشارها بهذه السرعة والقوة، هو بساطة قواعدها، فكل ما هناك التزام بأحكام الشريعة، وذكر ودعاء والتزام بأوامر الشيخ ونصائحه، وزيارته مرتين في السنة، والعامل الثالث هو جهود مشائخ الطريقة التي بذلوها في سبيل نشرها، لعل من أبرزهم: باش تارزي، بن الحملاوي، محمد بن عزوز، علي بن عمر، ابن الحداد...، وعامل آخر يعتبر أساسًا ومحوريًا هو مشاركتها في معظم الثورات الّتي قامت بالبلاد ضدّ المحتل الأجنبي، ثم الأدوار الاجتماعية والدينية الّتي قامت بها ممّا أدّى إلى التفاف الشعب حولها واحتضانه لها.

وقد ساهمت الطريقة الرحمانية بشكل جلي في إذابة الجليد بين الفريقين:

فقد انتشرت بين البربر والعرب على السواء، وتبنّاها الفريقان دون تمييز أو تفرقة عرقية، وقد مثلت الطريقة أنموذج الوحدة بينهما. وإذا رجعنا إلى كتابات الأزهري نجد أن طلبته ومريديه ينتشرون في مختلف أرجاء البلاد، وقد تولّى رئاستها الشيخ الجعدي وهو من عرب سور الغزلان.

وظلّت العلاقات قائمة بين العرب والبربر، فدرس في زواياها عرب المناطق الصحراوية من الجلفة وسيدي عيسى... ودرس بها طلبة الجزائر العاصمة وتخرّجوا منها. وزيارات الوفود التي كانت تقبل من مناطق السهول والتل إلى بلاد القبائل ولا تزال إلى اليوم زيارات وفود بلاد القبائل بالآلاف إلى زاوية الهامل بعد موسم جني الزيتون من كل سنة مستمرة متواصلة بحمد الله منذ سنة1871م.

ثانيا: التوحيد بين الشمال والجنوب

والدور البارز أيضًا في تاريخ الطريقة هو توحيدها بين مناطق الشمال ومناطق الجنوب:

فقد كلّف الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري مريده عبد الرحمن باش تارزي بالانتقال إلى مدينة قسنطينة ونشر الطريقة هناك وهو بدوره كلّف مريده محمد بن عزوز بنشرها في ربوع الصحراء وكانت قد وصلت قبل ذلك عن طريق زيارات المؤسّس المتكررة لها. فقد زار ابن عبد الرحمن الأزهري مناطق بسكرة وطولقة والزيبان... أثناء جولاته لنشر الطريقة.

وإذا لاحظنا امتدادها عبر القطر نجد أنها امتدت من الشمال من الجزائر العاصمة باتجاه مدينة البليدة المدية قصر البخاري... حتّى المناطق الجنوبية

إلى أولاد جلال بسكرة طولقة والوادي ومنها انتقلت إلى الجنوب التونسي. أما في منطقة الشرق الجزائري فنجدها تمتد عبر منطقة الأوراس إلى تبسة وقالمة... ووصل تأثيرها حتّى مناطق الغرب إذ نجد بعض الأتباع للشيخ الأزهري في مناطق وهران ومستغانم وانتشرت زواياها في معظم مناطق وسط وشرق وجنوب البلاد: الجزائر، البليدة، المدية، سور الغزلان، الجلفة، الهامل، قسنطينة، باتنة... وذلك حسب الجداول الّتي قدمها ضباط الاحتلال الفرنسي. وهذا ما يفسّر لنا قوتّها وسيطرتها على مناطق كثيرة من الوطن.

ثم إن الأدوار الّتي قامت بها من رفع الظلم عن الناس وتوفير التعليم لهم والمأكل والمشرب للفقراء والمحتاجين، كل هذا ساهم في إقامة علاقات توحيد وتكاتف بين أفراد القبيلة الواحدة ومنه بين أتباع الزاوية التي توجد بها، فقد انتقل الولاء من القبيلة إلى الزاوية، وكانت الزاوية بدورها تمثل رمزًا لوحدة القبيلة.

ثالثا: التوحيد بين الريف والحضر

إشكالية العلاقة بين الريف والمدينة مطروحة بشكل قوي في الدراسات الاجتماعية، ونحن إذا ألقينا نظرة على بعض الطرق الصوفية نجد أن معظم أتباع طريقة ما ينتمون إما إلى سكان الريف، أو إلى سكان الحاضرة، لكن أن تجد طريقة جمعت بين النمطين فذلك أمر نادر، وهو ما نجده لدى الطريقة الرحمانية.

فقد انطلقت الطريقة الرحمانية من الريف من جبال بلاد القبائل، والزاوية التي أقامها الشيخ المؤسّس في بداية الأمر تقع في أعالي جبال بلاد القبائل، في قرية بونوح بالقرب من بوغني وانتقلت بعد ذلك إلى المدينة واستطاع الشيخ أن يؤسّس زاوية في مدينة الجزائر فجمعت بذلك بين

أهل المدن وأهل القرى والأرياف وكان مريدوها من مختلف الطبقات الشعبية الّتي تعرفها المدينة ويعرفها الريف والجبل، ولعلّ ضريحي الشيخ قد ساهمَا بشكل كبير في التوحيد بين الأتباع، فمن يميل إلى الطبيعة الريفية يذهب إلى ضريح الأزهري بقرية آيت إسماعيل ببونوح، أما مَن يميل إلى الحضرة فيذهب إلى الضريح الثاني بالحامة بالقرب من الجزائر العاصمة.

وقد لاحظ الكتّاب الفرنسيون، هذا التقسيم والتمايز بين الأتباع والمريدين ووجدوا أن أكثر زوار ضريح الجزائر العاصمة هم من الحضر وسكان العاصمة والمناطق المجاورة لها والأتباع من المغرب الأقصى، أما رواد ضريح بلاد القبائل فهم من سكان الجبل أومن الصحراء وهو تقسيم يحمل دلالات اجتماعية قوية ومع هذا فقد وحّدت الطريقة بينهم، إذ الاختلاف فقط في الوجهة أما السلوك والأخلاق والقيادة فواحدة. والزوايا التي أسست توزّعت بين الريف والمدينة: زاوية باش تارزي بقسنطينة، زاوية ابن الحملاوي بتلاغمة، زاوية مصطفى بن عزوز البرجي بنفطة... أما زوايا الأرياف فنجد: زاوية محمد بن عزوز البرجي بالقرب من طولقة، زاوية الهامل بالقرب من مدينة بوسعادة، زاوية الصادق بن الحاج المصمودي بجبل أحمر خدو...، ونجد من رموزها الكبار سكان الحاضرة منهم: عبد الرحمن باش تارزي، محمد العمالي ومصطفى باش تارزي... كما ضمّت بين رجالاتها الكبار أيضًا سكان القرى والأرياف ولعلّ انتشارها كان أكثر في القرى والأرياف وهو ردّ على الّذين يدّعون أنّها اقتصرت على أصحاب الريف أو الجبل فقط دون غيرهم. وقد ساهمت مساهمة فعّالة في نقل التعليم من الحواضر إلى الأرياف، فنجد مثلا أن قرية طولقة صارت مركزًا علميًا شهيرًا ونفس الشيء يقال عن قرية الهامل التي كانت معزولة تمامًا عن العالم الخارجي وصارت بعد دخول الطريقة إليها قبلة العلماء والأساتذة والباحثين عن الحقيقة والطريقة. من خلال كل هذا يتجلّى لنا

الدور الذي لعبته الطريقة الرحمانية في التوحيد بين قبائل البلاد المختلفة، وبين مناطقها الشاسعة الواسعة وبين الحضر والريف.

مساهمتها في التوحيد بين أقطار المغرب العربي

من المبادئ الأساسية الّتي تقوم عليها الطريقة الرحمانية ومن الأدوار الهامة الّتي قامت بها هي التوحيد بين أفراد المجتمع المسلم، التوحيد بين الغني والفقير، السيد والمسود، الرئيس والمرؤوس، بين القبائل والأعراش المتنافرة المتصارعة، بين المناطق المتباعدة: الصحراء والتل، بين الجنوب الجزائري والجريد التونسي، وهو مبدأ مستمد من الطريقة الخلوتية الأم الّتي يمكن القول إنّها من أوائل الطرق الّتي اعتمدت على نظام نشر المريدين والأتباع وتكليف العلماء والفقهاء منهم بنشر الطريقة في الأصقاع البعيدة، ولعل مسيرة حياة الشيخ الأزهري تطبيق عملي لمبادئ الطريقة الخلوتية إذ نجده قد تنقّل بأمر من شيخه الحفناوي إلى مناطق مختلفة من العالم الإسلامي: بلاد السودان والّتي استقرّ بها أكثر من ست سنوات، تركيا والأناضول ووصل حتّى إلى بلاد الهند في بعض الروايات، وبأمر من شيخه دائمًا انتقل الأزهري إلى بلاد المغرب العربي وذلك بعد أن لمس منه شيخه القدرة على نشر الطريقة بالمغرب الإسلامي، وقد كان يزخر بالعديد من الطرق الصوفية المختلفة: القادرية، الشاذلية، الزروقية، اليوسفية... لذا نجد أن الشيخ الأزهري قد سأل شيخه كيف لي الذهاب إلى المغرب وهو مليء بالنجوم الّذين يهتدى بهم، ففي كل ربع منه وليّ صالح يدعو إلى الله، فردّ عليه الحفناوي قائلا: إذا كان بالمغرب نجوم فأنت الشمس الّتي ستشرق عليهم من المشرق، أو كما يروى في مناقب الأزهري.

وفي طريق عودته إلى المغرب الإسلامي ظلّ الشيخ يدعو إلى التمسك بالأخلاق الفاضلة وذكر الله والتمسك بآداب الطريق، حتّى وصل إلى مدينة فاس، وهناك ألقَى عصا التسيار.

ولعلّ الكاتب الوحيد الّذي أشار إلى هذه المعلومة هو الشيخ الجعدي من شيوخ زاوية بن عبد الرحمن في بونوح، فيذكر في رسالته الّتي وضعها حول مناقب الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري: "...فبعد تمام مقاله — أي الشيخ الأزهري–، أذعن له السلطان—سلطان المغرب– وشكره، وأذِن له أن يبقى بوسط فاس، يعطي الأوراد، ويذكّر عباد الله، حاصله ما خرج من فاس حتّى صار غالب أهلها كلهم تلامذة له وجعل زاوية بمحروسة فاس، وهي عامرة إلى الآن، وهي أكبر الزوايا الّتي بفاس".

ولعلّ ما يعضد هذه الرواية هو وجود عدد كبير من أتباع الطريقة الرحمانية في المغرب الأقصى، فتذكر المصادر الغربية الّتي أرخت للأزهري أن زوّار ضريحه كانوا يأتون من كل مكان وكان المغاربة الّذين يفدون بأعداد كبيرة يقصدون الحامة. وتولّى مشيخة الزاوية بعده الشيخ علي بن عيسى المغربي، لمدة تزيد عن الثلاثين سنة.

ونجد الشيخ محمد بن عبد الرحمن نفسه يذكر أن أتباعه موجودون بالمغرب الأقصى والجزائر وبرّ العبيد وتونس... وغيرها من المناطق الّتي بلغتها الطريقة الرحمانية في حياة المؤسّس.

الطريقة بتونس

وإذا انتقلنا إلى تونس نجد أن الطريقة قد وصلت هناك في حياة المؤسّس نفسه، فقد مرّ في طريق عودته على تونس وقد يكون استقرّ بها مدّة إذ إننا نجد أتباعه بتونس وقد أسّس أحد مريديه فيما بعد زاوية بمدينة الكاف، فسرعة انتشار الطريقة بالمغرب الأدنى وتأسيس الزاوية دلّ على قدم العلاقة بين المؤسّس وأهل تلك البلاد.

وقد أشار الشيخ الأزهري مرارًا إلى أحذ أبناء تونس الشقيقة عنه طريقته وأن أتباعه موجودون بها، فبعث بأحد أتباعه الأساسيين إلى هناك

وهو سي مصطفى الطرابلسي، لنشر الطريقة وسرعان ما توفي الطرابلسي سنة 1776م.

تمكّن الشيخ أحمد بن علي بوحجر وأصله من مدينة عين تموشنت، من تأسيس زاوية بالكاف جمعت هؤلاء الأتباع وأصبح لها صدى بعيدًا في التاريخ الثقافي التونسي، وذلك سنة 1785م يعني في حياة الشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهري. امتدّ تأثيرها إلى الشرق الجزائري عامة واتّسع نفوذها في سوق أهراس ونواحيها. وقد ساهمت زاوية الكاف في نشر الوعي الديني ومحاربة الفساد الأخلاقي والانهيار الروحي الذي عرفته مناطق المغرب الإسلامي بسبب الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية وساهمت الزاوية في ثورة1871م.

بقيت عائلة بوحجر تتوارث الإشراف على الزاوية إلى أن وصلت المشيخة إلى سيدي علي بن عيسى الحفيد، سنة1881م الذي كان من المناهضين للاحتلال الفرنسي لتونس وحاول تزعّم حركة المقاومة عندما وصلت القوات العسكرية إلى الكاف وهو من الأسباب التي أدّت إلى اضمحلال الطريقة الرحمانية بمنطقة الكاف[1].

جاء في كتاب محمد المكي بن عزوز ما يلي: "كان سيدي محمد الصالح بوحجر، لا يفارق صلاة الصبح في الجماعة قط وكان لا يفارق قراءة الدر الفائق في الصّلاة النّبويّة للبكري كل يوم في ضريح والده، يعقد له جماعة يقرأونه بصوت واحد يختمونه في أيام وكان يفرق على أولئك الجماعة الدراهم بعدد له بال وتارة يسقيهم العسل في المجلس، يقوم بنفسه لإسقائهم. كان نظيف الثياب جدًا ملازمًا للطيب وكان جماله أكثر من جلاله، ليّن اللهجة كريمًا لا يجيب قاصده للمواساة بلا، لا يحب الإلحاح

1. الإسلام الطرقي: لطيفة الأخضر، ص43.

والحرص على طلب الأمور الدنيوية بحيث مَن ألحّ عليه في قضاء حاجة قال له: حاجتك لا تقضى، وكان إذا جاء إلى تونس يجتمع به العلماء الجلة ويجلونه وله معهم كرامات عالية شاهدوها منه...

زار سيدي علي بن عيسى ثلاث مرات في جرجرة وهو الذي لقنه الأسماء وأمسكه من كتفيه وهزّه وقال له: جعلناك من رجال الله بلا خدمة ثلاث مرّات يصنع معه ذلك. توفي سنة1276هـ/1860م، ودفن بزاويته"[1].

لجأ إليها الحاج عمر شيخ الطريقة الرحمانية في بلاد القبائل بعد فشل الثورة في جرجرة ضدّ المحتل الفرنسي وذلك سنة1857[2].

زاوية نفطة:

وعند زاوية الشيخ مصطفى بن عزوز، نحن أمام أنموذج آخر من الزوايا الرحمانية:

- جعلت منطقة الحركة خارج الوطن.
- تميّزت بنوع من القداسة والمهابة الخاصتين.
- ساهم رجالاتها، ومعظمهم من أبناء أسرة الشيخ بن عزوز أوتلميذه وصهره الشيخ علي بن عمر.
- وهي من نماذج الجمع بين الدِّين والعلم والثورة.

---

1. محمد المكي بن عزوز: علي الرضا الحسيني، ص55 ،56.
2. وأشار الدكتور سعد الله – بالاستناد إلى كور- إلى أن نفي الحاج عمر شيخ الطريقة الرحمانية في بلاد القبائل هو الذي أدّى إلى إنشاء الزاوية، لكن الثابت تاريخيًا أنها أنشئت قبل ذلك بزمن طويل، كما مرّ معنا اللّهمّ إذا المقصود هو زاوية أخرى بالكاف، ونحن نستبعد ذلك، لأن الكلام هنا عن زاوية الشيخ بوحجر بالكاف، والّتي كان على رأسها علي بن عيسى الحفيد كما يذكر (كور). تاريخ الجزائر الثقافي، 144/4، انظر أيضًا (بحوث...) لكور، المجلة الإفريقية، 1921، ص329-331.

هذا التشابك العميق والتداخل الوثيق بحيث لا نستطيع الفصل بين هذه الصفات والخصائص بالنسبة لهذه المؤسسة. وتحدثت بعض المصادر على أن سبب التأسيس هو أمر الشيخ علي بن عمر لتلميذه الشيخ مصطفى للانتقال إلى الجريد التونسي وتأسيس زاوية هناك.

فقد ذكر صاحب الدر المكنون ما يلي: "وكان الشيخ مصطفى قد شرع بتأسيس زاوية نفطة بناء على طلب وتوجيه من شيخه علي بن عمر وذهب إلى الجنوب التونسي واختار بلدة نفطة مقرا للزاوية وعاد إلى طولقة لزيارة شيخه ومقام والده في البرج وأثناء هذه الزيارة القصيرة انتقل شيخه إلى جوار ربّه فتولّى رئاسة الزاوية لمدة ستة أشهر ولّما آنس في ابن شيخه علي بن عثمان التقوى... وعاد إلى زاويته". أسّسها مصطفى بن عزوز وأصبحت في ظرف قصير جدًا من أهم مراكز الطريقة الرحمانية، وذلك بفضل شخصية المؤسّس وأصبحت تسمّى أحيانًا بالعزوزية وأصبح بدورها لها مقاديم وزوايا بالقطر التونسي، ولا تعرف الرحمانية هناك إلاّ من خلال شخصية مصطفى بن عزوز.

ساهمت زاوية سيدي مصطفى بن عزوز في التأثير على المجتمع التونسي: تعليمًا وإرشادًا وتوجيهًا، كثر أتباعها ومريدوها، أدّت دورًا في التواصل الثقافي بين المنطقتين : جنوب الجزائر وجنوب تونس. مصطفى بن محمد بن عزوز البرجي[1] (1220-1282هـ/1803-1865م): هو العارف بالله الشيخ مصطفى بن محمد بن عزوز البرجي، من بيت علم وفضل وصلاح، ولد رضي الله عنه بزاوية والده الشيخ سيدي محمد بن عزوز البرجي بالبرج القريبة من طولقة بالجنوب الجزائري وذلك سنة1220هـ/1803م.

---

1. انظر: إتحاف أهل الزمان 143/8، ديبون وكوبولاني 394،395، إيضاح المكنون 201/1.

أخذ العلم عن شيوخ بلده، كما أخذ عن محمد الأمير أحد شيوخ الأزهر الشريف وإبراهيم الباجوري والسنوسي وأخذ الطريقة الرحمانية عن الشيخ علي بن عمر الطولقي.

وعند احتلال بسكرة سنة1843م، هاجر إلى نفطة وأسّس بها زاوية رحمانية، أصبحت ذات شهرة واسعة في العلم والتصوف وملجأ للهاربين من ظلم الاستعمار الفرنسي وقاعدة خلفية لمقاومة الاحتلال، سيما قبل احتلال تونس سنة1881م. قال عنه الوزير المؤرخ ابن أبي الضياف: "دخل إلى بلاد الجريد، وبثّ فيها الطريقة الرحمانية في العروش وجدّد لهذه الأمة أمر دينها وطار صيته وظهرت كراماته". ويقول الشيخ إبراهيم خريف: "ورد على نفطة من بلاد الزاب مهاجرًا، القدوة المرشد، صفوة البررة، وخلاصة الصالحين الخيرة، الشيخ سيدي مصطفى بن عزوز البرجي، فاستوطن مع عائلته وعدد كبير من أتباعه، فأقبلت عليه البلاد وهرعت إليه العباد، يتلمّسون بركته". وأنشأ في زاويته مدرسة هامة لتعليم القرآن الكريم وحفظه وتدريس كافة فنون العلم وجهّز بيوتًا لسكنى المتفرغين لطب العلم وأحضر لها كبار العلماء من مختلف الجهات، من أمثال: الشيخ الصالح الحمادي، أحمد السنوسي القفصي، إبراهيم التوزري، التارزي بن عزوز... وغير هؤلاء من الفضلاء الأجلّة وصارت بهم الزاوية روضة من رياض العلم ومركز إشعاع وتنوير، كما يشير الباحثون إلى أن سبب التأسيس كان بالدرجة الأولى لمواصلة الجهاد ضدّ المحتل واتخاذ الزاوية قاعدة خلفية للمجاهدين ولجمع السلاح والمال وإمداد الثوار من الحدود التونسية. وقد جاء في أحد التقارير الفرنسية ما يعضد هذا الكلام: "إن مصطفى بن عزوز شيخ الطريقة الرحمانية وعدو الفرنسيين اللدود، يستقر بزاويته في نفطة ومنها يوفد المقدمين إلى حيث تدعو الحاجة... لذلك فلن يهدأ لنا بال في الجزائر ما دمنا نتسامح في ترك زعماء يستقرون قرب

الحدود الجزائرية ويمارسون كل النفوذ لدى قبائلنا". وكان باي تونس المشير محمد باشا يعظّم شأنه ويجلّه واجتمع به غير مرة وقد أصدر أوامره إلى رجال الدولة بإسباغ الحرمة والحماية على الزاوية ولكل مَن يلتجئ إليها، تعظيمًا وتقديرًا لشأن الشيخ،كما قام بمساعي الصلح بين الدولة والثائر بن غذاهم سنة 1280هـ. أسّس عدة زوايا أخرى في تونس كان لها أثر بعيد في تعليم القرآن الكريم وحفظ العقيدة الإسلامية منها: زاوية توزر، القصرين، جرجيس، جندوبة، غدامس، النوبة... وله زوايا في خارج تونس منها زاوية في درنة بليبيا. له من المؤلفات: رسالة في مناقب الشيخ علي بن عمر الطولقي، بهجة الشائقين، حزب التّوسّل بأسماء الله الحسنى، عرف شهرة واسعة لدى الأوساط الصوفية. توفي آخر ليلة من ذي الحجة سنة1282هـ/10 ماي1865م ودفن بزاويته بنفطة.

التارزي بن محمد بن عزوز البرجي[1] (1227–1310هـ/1812–1892م). من العلماء الصالحين والأتقياء العارفين، من أبرز علماء الطريقة الرحمانية وأشهرهم وأحد أبناء الولي الصالح الشيخ محمد بن عزوز البرجي، الذين اشتهروا بالتصوف وبمقاومة الاحتلال. ولد ببلدة البرج سنة1227هـ، تلقّى العلم على كبار مشائخ القرية والزاوية، ثم أخذ الطريقة الرحمانية على يد عبد الحفيظ الخنقي ـ تلميذ والده ـ وكانت له معه مراسلات عديدة، وقد التزم بهذه الطريقة حتّى غدَا من شيوخها الكبار. وبعد احتلال مدينة بسكرة هاجر رفقة عائلته إلى مدينة نفطة الّتي سبقه إليها أخوه الشيخ مصطفى بن عزوز البرجي وذلك سنة1262هـ/1845م. قضى معظم عمره في التدريس والإرشاد بزاوية الشيخ مصطفى بن عزوز

1. انظر: النفحات الربانية 9، تعطير الأكوان 158، الدر المكنوز 7، أعلام زاوية مصطفى بن عزوز 57.

البرجي بنفطة وانتفع به الخلق، منهم العالم الفقيه علي بن الحـــاج نصـــر النفطي ومحمد المكي بن عزوز.

انتقل بعد ذلك (بعد1285هـــ) بأغلب عائلته الطاهرة إلى بلاد الحجاز وذلك بسبب رؤيا رآها، حيث رأى الرّسول صلّى الله عليه وسلّم في المنام يأمره بالقدوم إلى المدينة والمجاورة هناك وأخبره أن وفاته ستكون بها، فباع كل ما يملك وذهب إلى الحجاز وجاوره بالمدينة إلى وفاته.

كان شاعرًا مطبوعًا وأديبًا ماهرًا، نظّم قصائد في مواضيع كثيرة، معظمها في تربية النّفس وتهذيب الأخلاق وله رسائل عدة في هذا الشأن منها: الهواتف[1] وهو كتاب في التصوف يشبه كتاب المواقف للنفري، رسالة في مسألة إلهام الأولياء، نشرها محمد الصغير الجيلالي في "تعطير الأكوان" وقصائد عديدة في التصوف، متداولة بين أتباع الطريقة الرحمانية، نقل بعضها في تعطير الأكوان. من نظمه:

سكرنا بخمر والـــرفاق تماهلوا　　　فيا ليتهم بالذكر غابوا وهيللوا
فمن كان ذا وجد عليه بخمرة　　　تأنس شاربوها منّـــا وأفضلوا

وله مراسلات كثيرة مع الشيخ محمد بن أبي القاسم الهاملي الذي شهد له ببلوغ درجة القطبانية، وذلك قبل وفاته بقليل وتوفي رضي الله عنه سنة1310هـــ/1892م بالمدينة المنورة.

---

1. الهواتف: قسمه إلى مقدمة تناول فيها الإلهام والكشف، الهواتف النثرية، الهواتف الشعرية، زوائد وفرائد، لا يزال مخطوطًا في بعض المكتبات الخاصة.